التفسير الصوفيّ لسورة يوسف

د. سعاد الحكيم

المقدمة:

كان القــرآن الكريــم، ولا يزال، محور الحياة الدينيّة والفكريّــة لأمّةٍ أمميّة من الناس.. يرجعــون إليه لبناء تصوّراتهم العقليّــة عن الألوهيّة والربوبيّة والإنســان والعالم والمصير والســعادة، ويعوّلــون عليه لتأصيــل نظرياتهم ورؤاهــم الدينيّة والإنســانيّة والبرهنة على صوابيّتها.

ولذا، فإنّ المفكّر المعاصر في الحقل الدينيّ والإنسانيّ يستقبل مطلق تفسير للقرآن بما يليق به من الشغف والتفكُّر وإرادة الفهم والاستعداد للتعلُّم، وعلى هذه الأسس استقبل عقلي ما حَواه هذا الكتاب القيّم من تفسيرٍ صوفيٍّ لسورة يوسف عليه السلام، وأنْصَتَ باهتمامٍ لمرويّات السلميّ وروزبهان البقليّ والديلميّ الناقلة لشذرات صوفيّة تجمع معانيها قصّة يوسف عليه السلام المنزّلة في سورة قرآنيّة.

وإذ إنّه لا يحقّ لمفسّر أو متدبّر أن يحبس الآيات القرآنيّة في معنى واحد بل يظلّ النصّ مفتوحاً للقراءات والتدبّرات، فإنّ التفاسير – في معظمها – تصبح في المثال كالمرآة التي تعكس هويّة المفسّر وانشغالاته الفكريّة ووجهته المعرفيّة واختصاصه العلميّ (فقه، علم عقيدة، علم اجتماع فلك، فيزياء، طب، ...). ومن هنا، فإنّنا نبرهن عما ذهبنا إليه بالفقرات الأربع التي نقدّم بها لهذا الكتاب النموذجيّ في ميدانه:

الفقرة الأولى – التأصيل القرآنيّ لأفكار صوفيّة:

يمتاز كتاب التفسير الصوفيّ لسورة يوسف الصادر عن المكتبة الفلسفيّة الصوفيّة عن غيره من تفاسير القرآن الكريم، بأنّه يجمع شذرات التراث الصوفيّ الحاكية عن يوسف عليه

(*) استاذ الفكر الاسلامي والدراسات الصوفية في الجامعة اليسوعية ببيروت

السلام ومراحل حياته وعن أبيه وإخوته جميعاً..

ومن هنا، نجد أقوالاً عدّة لأقطاب صوفيّة عاشوا قبل القرن الخامس الهجريّ، منهم: أبو القاسم الجنيد البغداديّ (ت ٢٩٧هـ)، وأبو عثمان المغربيّ (ت ٣٧٣هـ)، وأبو بكر الواسطيّ (ت ٣٢٠هـ)، وأبو العبّاس أحمد بن عطاء الأدميّ (ت ٣٠٩هـ)، وأبو القاسم بن محمّد النصراباذيّ (ت ٣٦٧هـ)، وسهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣هـ) كما نجد أقوالاً عدّة للإمام جعفر بن محمّد الصادق (عليه السلام ت ١٤٨هـ) .

ونلاحظ أنّ المفسرين الثلاثة، السلميّ والبقليّ والديلميّ، كان يشغلهم همٌّ مشترك وهو: التدليل على أنّ الأفكار الصوفيّة لها أصل قرآنيّ. ونكتفي بذكر ستّ أفكار صوفيّة نرى أنّ المفسرين استحضروها عند قراءتهم لقصة يوسف عليه السلام؛ وهي:

١ - التوكّل وترك التدبير: يدافع الصوفيّ عن فعل «التوكّل» على الله تعالى في مقابل اعتماد الإنسان على تدبيره الشخصيّ. كما يحاول الصوفيّ أن يبيّن للمتلقي أنّه إنْ توكّل على الله تعالى في شأنٍ يقلقه، وترك الاعتماد على التدبير، فإنّ الله يحفظه ممّا يخاف، وقد استحضر السلميّ والبقليّ مقولة «التوكل» في سياق تفسير قول يعقوب لولده عليهما السلام ﴿لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف ٥]. لقد دبّر يعقوب ليوسف، فوُكّل إلى تدبيره، فأراه الله فيه ما كان يخافه عليه؛ على حسب تفسيرهما، ولو ترك يعقوب عليه السلام التدبير وسلّم ولده للقضاء الإلهيّ لحُفظ، كما فعل عندما سلّم بنيامين لإخوته بقوله ﴿فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾ [يوسف ٦٤][١].

وحتى لا ينزاح الفكر إلى فهمٍ خاطئ لفعل التوكّل، ينبّه السلميّ على أنّ صدق التوكل لا يتنافى مع استعمال الأسباب، بل هو «استعمال السبب مع ترك الاختيار»[٢].. ويقول روزبهان: «حقيقة التوكّل: العلم بوحدانيّة الله وغلبة قهره على كلّ ذرّة»[٣].

٢ - رؤية التقصير من النفس شرك: هذه المقولة الصوفيّة التي يوردها السلميّ مغفلة [٤] وينسبها روزبهان البقليّ إلى أبي بكر الواسطيّ[٥]، والتي تتضمّن حكماً عقدياً بالشرك، تحتاج إلى شروحات تبيّن معناها ومجال فعلها حتى يتمكّن العقل الإسلاميّ من فهمها وربما استساغتها. وذلك، أنّ الخطاب الشرعيّ والأخلاقيّ في الإسلام ينبني على مسألة تحميل الشخص مسؤولية أعماله كلّها.. ومن هنا، فالانتقال من منظور المسؤوليّة الشخصية عن الأعمال إلى منظور عدم الانحجاب برؤية النفس ورؤية الفعل منها مع قيام النفس بكلّ ما هي مكلّفة به، يربك العقل العام ويتطلب مزيد نقاشات وبيانات.

٣ - الحذر من الركون إلى شيء: من التعاليم الصوفيّة السائدة في أوساطهم؛ أنّ من يركن إلى شيء يأتيه منه محنة وابتلاء. وعلى ضوء هذا التعليم ينقل السلميّ عن ابن عطاء قوله: «كلّ من اعتمدتَ عليه وسكنت إليه يصيبك بذلك المقدار منه محنة. ألا ترى إلى صاحب يوسف لمّا قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾، لما ركن إلى يوسف صار يوسف محنة عليه وعليها. حتى قالت: ﴿مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾ وما بعده من المحن» [٦].

وخلاصة التعليم الصوفيّ في هذا المجال، التحذير من الانحجاب بالأسباب عن مسبب الأسباب

(١)يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ص ٧ – ٩، وص ٤١.

(٢) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٥٢. كما يراجع: ص ٥٧ (ترك الاختيار).(٣) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٦٣.

(٤) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٣٣.

(٥) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٩٣.

(٦) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ١٢.

سبحانه، واليقين بأنّ الخير كلّه من عند الله تعالى وقد يجريه بسبب نراه ونتوسمه أو قد يجريه من حيث لا نحتسب.

٤ - الفنـاء عـن الخلـق وعن النفـس: يرصد معظم الصوفيّة، ذهول النسـوة عند رؤية يوسف عليه السلام، وغيابهن برؤية حُسْنه عن النظر إلى أي شيء أو أي إنسـان غيره، إلى حدّ انخلاعهنّ عن الإحسـاس بأجسـادهنّ، فقطّعن أيديهنّ دون أن يخرجهنّ ألم جسـديّ عن اسـتغراقهنّ بمشاهدة الجمـال البادي لأعينهنّ.. ثمّ يوظف الصوفيّة هذا الرصد في الدفاع عن مسألة الفناء عن الخلق وعن الحسّ بمشـاهدة أنوار علويّة. ينقل السـلميّ عن ابن عطاء قوله: «دهشن من يوسف وتحيّرن، يعني النسـوة، حتى قطّعن أيديهنّ. فهذه غلبة مشاهدة مخلـوق لمخلوق، فكيف بمن تأخذه مشـاهدة من الحـقّ، فلِمَ يُنكَـر عليه أن تتغـير صفاته عليه أو ينطق في الوقت على حدّة الغلبة بمرامٍ كبير»[٧].

٥ - غـيرة الله تعالى على أحبائـه: من التعاليم الصوفيّة السائدة؛ أنّ الله تعالى يغار على أحبّائه أن يلجأوا إلى غيره في شـأنٍ من شؤونهم أو أنْ يشكو واحدهم إلى أحد غيره تعالى من مصيبة أصابته أو من غمّ تسرّب إلى فؤاده.. يقول روزبهان البقليّ في تفسـير الآية ٨٥ من سورة يوسف التي تذكر قول يعقوب عليه السـلام لأبنائه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.. يقول: «أي أنا لا أشـكو إلى غيره فإنّي أعلم غيرته على أحبائه وأهل معرفته، إذا شكا أحدٌ إلى غـيره يعذّبه عذاباً لا يعذّبـه أحداً من العالمين، وأنتم لا تعلمون ذلك»[٨].

٦ - الرؤيا حقٌّ: إنّ تفسير الديلميّ لسورة يوسف هو قصير نسـبياً مقارنة بتفسير السلميّ والبقليّ، وهو لا يتجاوز السبع صفحات.

والملفـت أنّ الديلمـي لم يسـتقطبه من سـورة يوسـف إلّا آيات ثلاث تحكي عن الرؤيا التي رآها يوسـف عليه السلام، ونلحظ أنّ الديلميّ يرتّب في هذه الصفحات السـبع رؤية متكاملة ناظمة – في أحـد عشر تعليماً – للموقف الصوفيّ من مسـألة: الرؤى والمبشرات، ونكتفي بذكر خمسـة من هذه التعاليم، وهي:

١- إنّ الرؤيـا الصادقـة هي من جنـس الحقائق وليست خيالاً أو وهماً، وهذا يعني، أنّها ستتحقّق في الواقع في قادم الأيام إن لم يقطعها قاطع.

٢- إنّ المريـد المبتدئ عندما يرى مبشرة في منامه يتعـين عليه أنْ يرجـع إلى معلّمه – أو شـيخه – ليرشـده وينصحه، وهنا فإنّ يعقوب عليه السلام هو في مقام الشيخ ليوسف عليه السلام، وقد أمره بإخفاء رؤياه.

٣- إنّ المريد مطالب بإخفاء وارداته وواقعاته عن جميع الناس ما عدا شيخه الراسخ في العلم.

٤- إنّ الحسد قد يؤثر في تغيير المبشرات.

٥- إنّ الشيطان إذا رأى آثار النبوّة أو الولاية عند إنسان فإنّه يقوم بإفساد ذلك عليه.

الفقرة الثانية – الصوفيّ ومقام النبوّة:

غنـيٌّ عن البيـان، أنّ الصوفيّ –المريد والشـيخ، والعامـي والولي- يعلم يقينـاً أنّه وإن انتخبه الله تعالى للولايـة، ومهما علت رتبته في درجاتها فإنّه لا يدنـو من مقـام النبـوة أو الرسـالة. فالأنبياء والمرسلون هم صفوة البشر، اصطفاهم الله تعالى لرسالاته والدعوة إلى توحيده وحسن عبادته، وهم أعلـم الخلق بالله تعالى، وهم معصومون بعصمة الله تعالى لهم.

ومن هنا، فإنّ التأدّب مع أنبياء الله تعالى، وحفظ المسافات، هو واجبٌ دينيٌّ وخلقيٌّ. لذا، تستوقفنا بعـض العبـارات المنقولـة عن أعـلام صوفيّة، لا نقول إنّها خارجة عن أصـول التعامل اللائق مع الأنبيـاء، ولكن نقـول: إنها فجّة وغـير مصقولة، وهـي في رأينـا تحتاج أيضاً إلى توثيـق، لأنّها ترد

(٧) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ١٦.
(٨) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٨٠.

دون أي ذكر لمرجعية محدّدة. ومن هذه المواطن:

١ – التلميح بالتقصير: عند تفسير الآية الكريمة التي تذكر قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]، ينقل السلميّ عن محمّد بن علي قوله: «لمّا لم يزجرهم [= يعقوب عليه السلام] عن اللعب وسكت عنهم جاء من ذلك اللعب ما اتصل عليه به الحزن»[٩].

٢ – التلميح بالغفلة: عند تفسير الآية الكريمة التي تذكر أن يوسف عليه السلام رأى برهان ربّه، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٢٤]، ينقل السلميّ عن ابن عطاء استنباطاً مستغرباً ولا يستقيم بحال وهو قوله: «قالت زليخا ليوسف: اصبر عليّ ساعة حتى أعود إليك. فقال: ما تفعلين؟ قالت: أغطّي وجه ذلك الصنم، فإنّي أستحي منه. فتذكّر يوسف عند ذلك اطلاع ربّه عليه، فهرب منها، فذلك هو البرهان»[١٠].

٣ – تعيين ذنوب: عند تفسير الآية الكريمة التي تذكر قول يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، ينقل السلميّ عن بعضهم قوله: «ترك [= يوسف عليه السلام] طريق الاضطرار واختار، فتُرك مع اختياره حتّى لبث في السجن ما لبث، وتولّد له من السجن تلك الخطيئة العظيمة، وهو الركون إلى غير الحقّ بقوله [= لصاحب السجن]: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾».[١١]

٤ – أنّ ما يحدث ليعقوب ويوسف –عليهما السلام– هو عقاب لا بلاء: عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً؟ قَالَ صلّى الله عليه وسلّم: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ »[١٢]. وبناءً عليه استقر في قناعة المسلم معتقدٌ إيمانيّ مفاده بأنّ ما يحدث للأنبياء هو من جنس البلاء؛ إظهارًا لعزمهم واعتباراً للكافة، ونلاحظ أنّ السلميّ ينقل عدّة مقولات تفسّر ما يحدث ليعقوب ويوسف عليهما السلام على قاعدة «العقاب» وليس «البلاء».. وأكتفي بذكر واحدة منها:

ينقل السلميّ عن أبي سعيد القرشيّ قوله: «أوحى الله تعالى إلى يعقوب: تتأسف على غيري وعزّتي لآخذن عينيك ولا أردّهما عليك حتى تنساه (...) وسئل أبو سعيد: لِمَ لم تذهب عين آدم وعين داود عليهما السلام من طول بكائهما وذهبت عين يعقوب؟ قال: لأنّ بكاءَهما كان من خوف الله، وبكاء يعقوب كان على فقد ولده؛ فحُفظا وعُوقب»[١٣] .

٥ – التنظير بدل الاعتبار: نستشعر في مواضع قليلة جداً بل نادرة جداً كأنّ الصوفيّ يضع نفسه أمام القصّة النبويّة في موضع المعلّم لا المتعلّم. ومن هذه المواضع النادرة؛ ما يذكره روزبهان البقليّ عند تفسيره للآية ٢٥ من سورة يوسف، وهي قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾. يقول ما مفاده: إنّ يوسف عليه السلام فرّ من أماكن الخطر لأنّه كان في أوائل التوحيد، ولو صبر حتى غاص في بحر الوحدانيّة لم يحتج إلى الفرار إلى الباب، وإن تمكّن من رؤية الحقّ وبرهانه وسكن ونظر إلى زليخا بنظر التوحيد لتَذوبُ زليخا بنظره إليها وتتقدّس من شهواتها، لأنّ حقيقة التوحيد إذا غلبت تؤدي إلى فناء ما دون الله تعالى[١٤].

الفقرة الثالثة – لطائف صوفيّة رائقة:

إنّ النصّ الصوفيّ محبوك بلطائف رائقة تنعش

(٩)يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٩.

(١٠)يُنظرفي التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ١٣.

(١١)يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ١٨. كما يراجع: ص ص ٢١ – ٢٢.

(١٢)صحيح ابن حبان، ج٧، ص ١٦٠، حديث رقم ٢٩٠٠.

(١٣) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٢٨.

(١٤) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٥٢.

عقل الإنسان وتفتح له نوافذ على عوالم الرقائق والدقائق.. وهذه اللطائف توجد بكثافة في هذه التفاسير الثلاثة، ولكن نذكر منها خمس على سبيل الاستشهاد لا الاستقصاء، وهي:

١ – الدعوة إلى الله والدعوة إلى سبيل الله: عند تفسير الآية ١٠٨ من سورة يوسف، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، روى السلميّ عن أبي سعيد القرشيّ قوله: «من دعا الخلق إلى الله –تعالى– يحتاج أن تكون له صولة وقبول، وتكون هذه الأحوال مندرجة في دعوته. كما قال الله تعالى ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، ففرّق بين من دعا إلى الله وبين من دعا إلى سبيل الله»[١٥].

٢ – ذكر الجفاءِ بعد العفو والتصافي جفاء: عند تفسير الآية الكريمة التي تذكر قول يوسف عليه السلام لأبيه بعد أن رفع أبويه على العرش، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف ١٠٠].. ينقل السلميّ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «قال يوسف: ﴿أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يقل أخرجني من الجبّ وهو أصعب. لأنّه لم يرد مواجهة إخوته بأنكم جفوتموني وألقيتموني في الجبّ بعد أن قال: ﴿لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [يوسف ٩٢]»[١٦].

٣ – شأن يوسف كلّه عشق: يرى روزبهان البقليّ أنّ الخيط الناظم لقصة يوسف عليه السلام هو العشق؛ عشقه أبوه وعشقته امرأة العزيز وعشقه كلّ من رآه إن لم يمنعه الحسد. يقول روزبهان: «وشأن يوسف عليه السلام كلّه عشقٌ، عشقَ به أبوه وهكذا كلّ من رآه، لأنّ حسن جمال القديم ألبس وجهه وكان مرآة الله في بلاد الله»[١٧].

٤ – خلو قصّة يوسف من الأمر والنهي: يستنبط روزبهان لطيفة رائقة حين ينبّه إلى أنّ الله تعالى لم يضمّن قصّة يوسف عليه السلام أوامر ونواهي شرعية. وذلك لأنّ سماع الأمر والنهي يوجب اشتغال القلب[١٨]. يقول روزبهان مستنبطاً السبب في كون قصّة يوسف عليه السلام أحسن القصص: «وكيف لا يكون أحسن القصص، وهذه القصة قديمة أزليّة، وكلّ حُسْن في العالم هي معدنها ومنها صدر كلّ الحُسْن والمستحسن. ومن كمال حسنها أنّه تعالى أخرجها من بحث التكليف، ولم يذكر في قصّة العاشق والمعشوق الأمر والنهي»[١٩].

٥ – إرسال القميص للتدرّج في الرؤية: انطلاقاً من قناعات وتجارب تكشف عن هشاشة الإنسان العاشق، وأنّه معرّض لأنْ يتوقّف قلبه ويموت إن فجأته رؤية محبوبه وبخاصة إن كان ذلك بعد طول غياب وعلى غير انتظار.. لذلك يلفت روزبهان نظرنا إلى حرص يوسف عليه السلام على تدريج والده بشأن رؤيته، فأرسل قميصه مع إخوته: ﴿اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ [يوسف ٩٣]، ليأنس والده ويسكن إلى قرب اللقاء.

يقول روزبهان ما مفاده؛ أنّ الحكمة في إرسال القميص تنطوي على كون يوسف عليه السلام يعلم بأنّ يعقوب عليه السلام لا يحتمل الوصال الكلّيّ بالبديهة، فجعل وصاله بالتدريج لئلا يهلك من أول الملاقاة من فرح الوجدان. فأرسل القميص ليقوّيه بريحه وطيب روحه، ولأنّ عيني يعقوب ابيضتا، أي ضعف نورهما ولم يذهب، فخاف على عينيه فأرسل القميص لذهاب بياضهما، فإنّه لو

(١٥) انظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٣٤.

(١٦) انظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٣٢.

(١٧) انظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٣٩.

(١٨) انظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٣٩.

(١٩) انظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٣٩.

يشمّ يوسفَ بعينيه لاحترق بقية نورهما من فورة الهيجان[٢٠].

الفقرة الرابعة – إشارات قرآنيّة:

اهتم العارفون من الصوفيّة باستنباط إشارات القرآن، ممّا حدا بالبعض إلى تسمية «التفسير الصوفيّ» بـ « التفسير الإشاريّ للقرآن».. وهذه التفاسير الثلاثة لسورة يوسف عليه السلام ثريّة بالإشارات المستنبطة، ونتوقف عند ثلاث منها للاستشهاد:

١ – الأحرف الثلاثة المقطعة في بداية سورة يوسف ﴿الر﴾: يقول روزبهان البقليّ في فهم إشارات هذه الحروف: «الألف: إشارة إلى أنانيّة أهل التوحيد. واللام: إشارة إلى نكرة أهل التجريد. والراء: إشارة إلى ربّانية أهل التفريد»[٢١].

٢ – الأحرف الأربعة لاسم يوسف: يقول روزبهان مستنبطاً إشارات من حروف اسم يوسف دالة على أوصافه: «جمع الله في اسم يوسف أحرف الياء والواو والسين والفاء. الياء: يسار ملكه. والواو: وضاحة وجهه. والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات. والفاء: وفاؤه في عهد الرسالة. فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف سُمّي يوسف»[٢٢].

٣ – ذئب الحسد: إنّ الذئب الذي يشغل بدايات قصة يوسف عليه السلام هو غير موجود في الواقع. فالذئب لم يأكل يوسف، لأنّه لا وجود لذئب في الحقيقة. وهنا، يتلامح في التفسير أمران: الأوّل؛ أنّ يعقوب عليه السلام ذكر الذئب وأنّه يخاف أن يأكل يوسف إنْ غفل عنه إخوته. والثاني؛ أنّ يعقوب نبي من أنبياء الله سبحانه لا يقول إلّا صدقاً، ومن هنا، فإنّه أشار بلفظ الذئب إلى حسد إخوته. يقول روزبهان في تفسير قوله تعالى ذاكراً يعقوب ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾: «صدق يعقوب خاف من ذئب حسدهم ورؤيته في ذلك حقيقة، وكلّ ما رأى يعقوب من هذه الواقعات فقوله فيها وقوع نظر سره على سرّ سابق التقدير. وكلّ ما قال لبنيّه من الزجر والنصيحة في حقّ يوسف مما رأى بنور النبوّة ما يقع في المستقبلات من الواقعات...»[٢٣].

وختاماً نقول:

لقد آن الأوان لأن نفتح خزائن الصوفيّة للإفادة من كنوزها في مجال تفسير القرآن الكريم، ويحتسب للباحث الصديق د. خالد محمّد عبده هذه الريادة، وإنّنا ندعوه للإبحار في هذا المحيط الواسع والعميق، مع العمل على دمج هذا الإرث الصوفيّ في سياق علم التفسير العام..

ولقد صار ملحّاً أن ننتقل من ثقافة الرفض والإلغاء والاستغناء إلى ثقافة الحوار والنقاش والاستفادة من الطيب، وأرى الحكمة فيما سمعته من صديقنا الراحل الأستاذ ميشيل شودكوفيتش، في إحدى محاضراته في السوربون في ثمانينات القرن العشرين، مشبّهاً الإرث الصوفيّ بصندوق من الجواهر النفيسة، فهل إن وجدنا في الصندوق بضع حصيّات نرمي الكنز العظيم؟

(٢٠) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٨٥.

(٢١) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٣٨.

(٢٢) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٣٩.

(٢٣) يُنظر في التفسير الصوفي لسورة يوسف: ص ٤٣.